التصوف من منظور الإمام المغيلي

الدكتور كفايت الله همداني
الأستاذ المشارك
الجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد، باكستان
Email: kuhamdani@numl.edu.pk

Abstract
When talking about Sufism in West and North Africa, great Sufi personalities jump to mind who played pivotal roles in different historical stages and in various geographical and human spaces within the West African region, among these sheikhs: Othman bin Foudio in Nigeria, Hajj Omar Tal in Senegal, and Sheikh Ahmadu Labo in Mali, and Sheikh Muhammad al-Hafiz bin al-Mukhtar bin al-Habib al-Alawi, and Sheikh Muhammad Fadel Mamin, and Muhammad al-Aghdaf al-Daoudi, in Mauritania. But - in my opinion - there is a Sufi figure who played a pioneering founding role that ruled the path of Sufism in West and North Africa for many centuries, and he is the figure of Sheikh Muhammad bin Abdul Karim al-Maghili. (died 940 AH / 1533 CE), who planted the seeds of African Sufism and imprinted it with a highly effective reformist character. The Sheikh Imam presented himself well to the issue of Sufism in an era when the country was under the weight of the spread of injustice and the spread of Jewish movements in controlling all aspects of life. The sheikh played a major role in conveying Sufi thought in its correct form, and he moved it from the Maghreb to the jungles of Africa, so he went to the countries of the western swan, and his efforts extended until he reached West Africa in Nigeria. The study reached a number of results and recommendations, including: Sufism is an issue that has its roots in ancient times, and although it is an ancient issue, it has a modern perspective, and understanding it in its correct way contributes a great role in guiding the Muslim and clarifying the correct concepts in religion.The Sufi thought of Sheikh Al-Maghili was based on several foundations, including:

- The impact of the social environment in which he was raised.
- The impact of political and religious life in his time.
- His view of the world and its distractions with the eye of the ascetic, the worshiper, the Mujahid.
- His view of the emirate and the king, and his intellectual view on positions and their demise.
- Moving and traveling from the countries of the Arab Maghreb to new countries, spreading Islam and the wise invitation to enter into it.

The study recommends paying attention to the Sheikh's history, investigation, study, and placing him in the position he deserves as an honorable image of the balanced, balanced voice.

تقديم:

المغرب العربي الإسلامي بقعة مباركة نشأت فيه كل حركات نقل الإسلام إلى أوربا وإلى أفريقيا، فمنذ أن فتح عقبة بن نافع برقة وطرابلس ومن قبله فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر، وأصبح للمغرب العربي عامة وللجزائر خاصة دور كبير في نشر الإسلام وكان تمهيدا طيبا لنقل الفكر التصوفي إلى أماكن مهجورة.

إن ظهور الطرق الصوفية في غرب وشمال إفريقيا أحد أهم وأبرز التطورات الثقافية والسياسية والدينية في التاريخ الحضاري لإفريقيا جنوب الصحراء على مدار القرون الخمسة الأخيرة، حيث كانت الطريقة القادرية المنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (دفين بغداد 561هـ/1167م)، هي أولى الطرق الصوفية وصولًا إلى غرب القارة، تبعتها –وربما سبقتها– الشاذلية، ثم التجانية في القرن التاسع عشر والتي أخذت زخمًا كبيرًا في غرب إفريقيا بدءًا من القرن التاسع عشر.

وعند الحديث عن التصوف في غرب وشمال إفريقيا تقفز إلى الأذهان شخصيات صوفية كبيرة لعبت أدوارًا محورية في مراحل تاريخية مختلفة وفي فضاءات جغرافية وبشرية متنوعة داخل منطقة الغرب الإفريقي، من بين هؤلاء الشيوخ: عثمان بن فودي في نيجيريا، والحاج عمر تال في السنغال، والشيخ أحمدو لبو في مالي، والسادة الشيخ، محمد الحافظ بن المختار بن الحبيب العلوي، والشيخ محمد فاضل مامين، ومحمد الأغظف الداودي، في موريتانيا. لكن –في نظري– هناك شخصية صوفية لعبت دورًا تأسيسيًّا رائدًا حكم مسار التصوف في الغرب والشمال الإفريقي لقرون عديدة، هي شخصية الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (توفي 940هـ/1533م)، الذي غرس بذور التصوف الإفريقي وطبعه بطابع إصلاحي شديد الفاعلية، والذي يعود له الفضل في وضع أسس التصوف الطرقي في غرب إفريقيا في ملتقى القرنين 18/17، كما منحه الفكرة التجديدية والأداة التنظيمية التي أهَّلته لمواجهة التحديات الدينية والحضارية التي عاشتها تلك المنطقة.

الشيخ الإمام قدم نفسه جيدا لقضية التصوف في عصر كانت البلاد تقع تحت وطأة انتشار الظلم وانتشار حركات اليهود في السيطرة على كل مناحي الحياة، فلم يقف مكتوف الأيدي بل سعى لتحجيم دورهم ووقف أمام حركاتهم بكل الوسائل، وجاهدهم في ذلك.

كان للشيخ دور كبير في نقل الفكر التصوفي بشكله الصحيح وانتقل به من المغرب العربي إلى أدغال إفريقيا فذهب إلى بلاد السوان الغربي، وامتدت جهوده حتى وصل غرب أفريقيا في نيجيريا.

جمعت شخصية الشيخ، محمد بن عبد الكريم المغيلي، أربعة أبعاد رئيسية، هي:

1- الرسوخ العلمي: حيث حاز بتصانيفه ومناظراته الإمامةَ في علوم الشريعة.

فمن العلماء الذين قد جالوا أقطار العالم الإسلامي عامة، والمغرب الإسلامي خاصة الفقيه الشيخ :محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني الذي اشتهر بمواقفه السياسية الصارمة وبنشاطه الإصلاحي المجدد، كما كان له دور بارز في الجانب العلمي والدعوي والذود عن دينه وإصلاح مجتمعه، كما اشتهر أيضا بكرهه وحقده الشديد على اليهود الذين كانت لهم مواقف سيئة بتمردهم على الحدود الدينية فثار عليهم وفق ما تحدده الشريعة الإسلامية من واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال السخاوي :كان الإمام علامة مصنفًا اختصر تفسير ابن عطية في جزأين وشرح ابن الحاجب الفرعي في جزأين وعمل في الوعظ والرقائق وغيرها، دخل تونس وأخذ عن الشيخ أبي مهدي عيسى الغريني ثم رحل للمشرق وسمع البخاري بمصر، ولد عام ست أو سبع وثمانين وسبعمائة، وتوفي كما ذكر .الشيخ زروق سنة خمس وسبعين وثمانمائة فعمره نحو تسعين سنة كما ذكره السخاوي. ([1])

إن الظروف التي ولد فيها الشيخ المغيلي صنعت له جوا خاصا أثر في تكوينه الثقافي، فقد كانت الحياة تعج الاضطرابات والمعاناة الاقتصادية، فقد"ولد محمد عبد الكريم المغيلي في أحضان قبيلة مغيلة بتلمسان في الجزائر سنة 138 هـ/ 8241 م"([2])

لا ينكر أحد دور الشيخ الإمام الميغلي في الجهاد في أفريقيا، والعمل على نشر العلم والدعوة إلى وبفضل توجيهاته لنشر الإصلاح ولم يغب عن تصوره وذهنه أن التصوف"بدأ نظريًا ثم تحول ...واتجه إلى العلمية، وأصبح يطلق عليه حينها: تصوف الزوايا والطرق الصوفية"([3])

مذهب المغيلي:

المغيلي مالكي المذهب، من أولياء الله الصالحين يشهد له علماء تلمسان بالعظمة والزهد في الدنيا حيث أخذ عن محمد بن أحمد بن عيسى المغيلي الشهير بالجلاب، مبادئ الفقه وأمهات الكتب الفقهية للمذهب المالكي كالرسالة ومختصر خليل وابن الحاجب وابن يونس كما أنه أجاد عدة فنون. ([4])

أثر البيئة الأسرية:

البيئة الاجتماعية التي تربى فيها الشيخ المغيلي أثرت في التنشئة العلمية، نشأ المغيلي وسط عائلة محافظة مشهورة بالعلم والتقوى وتلقى تعليمه الأولي على يد الشيخ محمد بن أحمد بن عيسى المغيلي ، حفظه القرآن ومبادئ الدين وعلوم الشريعة. ([5])

فحفظ عليه القرآن الكريم، كما أخذ عنه مبادئ الفقه وأمهات الكتب الفقهية للمذهب المالكي كالرسالة، ومختصر خليل وابن الحاجب وابن يونس" ([6])

ليعتكف بعدها على دراسة العلوم العربية الإسلامية اللغوية والدينية، العقلية والنقلية، الشيء الذي دفعه إلى مغادرة تلمسان باتجاه مدينة بجاية، فقد كانت آنذاك مركزا ثقافيا يعج بالطلاب الوافدين

إليها من كل جهة، فدرس على علمائها التفسير والحديث والفقه المالكي وأصوله وعلوم العربية، غير أنه لم يبقى ببجاية مدة طويلة حيث خرج منها في اتجاه الجزائر مدركا من بعض زملائه الطلاب شهرة ومدرسة الشيخ عبد الرحمان الثعالبي، فلازمه فترة لا بأس بها حيث لم يكن يومئذ من الشيوخ المغاربة من يفوته في علم الحديث، كما أخذ عنه التفسير والقراءات وبصورة أخص علم التصوف ولما تمت الصحبة بينه وبين شيخه الثعالبي صاهره بابنته زينب والتي أنجبت له ثلاثة أبناء بأولاد سعيد، وهم علي والذي توفي في مقتبل العمر، وعبد الله وهو الذي عاش بعد موت أبيه وخلف ولدين هما أبو القاسم محمد وهبد الرحمين ومنهما انتشرت وتفرعت سلالة المغيلي بتوات، أما محمد عبد الجبار فهو ابنه الثالث وكان ملازما لأبيه وعرف عنه العلم والشجاعة وقد قتل من جهة اليهود بعدما تركه أبوه على عامة القصور التواتة قبل رحيله إلى السودان الغربي، كما كان للمغيلي زوجة ثانية تزوجها أثناء تواجده .بالسودان الغربي، وقد أنجبت له ثلاثة أبناء :أحمد، عيسى والسيد الأبيض ".([7])

مناظرة المغيلي مع السيوطي:

وقد وقع سجال علمي وجدل فكري بينه وبين الإمام جلال الدين السيوطي) ت 911 :هـ" الذي حرم المنطق كونه علم من علوم الكفار، بينما يرى المغيلي أنَّ المؤَدِّيَة إلى الحَقّ، فَمَعْرِفَة الناس بِالحَقّ هِيَ الأَساس المنطق وَسِيلَة من وَسائِل المبْدَأ وَهِي المعْتَمَد، وَلَيْسَ مَعْرِفَة الحَقّ بِالناسُ "، وقد ألف بعض المؤلفات في المنطق منها" :لب الباب في رد الفكر الى الصواب "و"امناح الأحباب شرح منح الوهاب " و"فصل الخطاب في رد الفكر إلى الصواب "و"شرح موجز لرجز منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب."فَالمنِطق في عُرْف الشَيْخ المغيلي هُوَ علم يتَعَلَّق فِيهِ كَيْفِيَّة الِّانْتِقال من أمُور حاصِلَة في الذِهْن لَأُمُور مُسْتَخْلَصَة فِيهِ، وَلِذلّكَ قالَ الأمام الغَزالِي" : المنطق مُقَدِّمَة العُلُوم .كُلّها، وَمَن لم يَحْظَ بِهِ علما لا ثِقَّة لَهُ بِفَ هْمه أَصَلا" كان لقاء الامام المغيلي بالشيخ جلال الدين السيوطي ببلاد السودان ولكن وقع اختلاف (في مكان اجتماعهما بالتحديد هو في كاشنة أم تكلة او تنبكتو ([8])

موقفه من اليهود:

كره المغيلي اليهود، ووقف أما توغلهم في مصالح المجتمع، وجند كل الظروف لمجابهتم ماديا واقتصاديا، انتصر عليهم، وهزم وجوده الفكري والمادي والمعنوي.

منهجه في التفسير:

يظهر لنا من خلال قراءتنا لسورة الفاتحة أنّ الشيخ المغيلي وإنْ كان مهتما باللغة وبالتفسير اللغوي إلا أنّه لا يهمل النقل بما ورد من أثر، فقد يفسر القرآن بالقرآن ويعتمد على ما روي من السنة

النبوية وأحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام، ويتناول أشهر م بحيث يلتزم أقوال الصحابة الكرام والتابعين وأقوال المفسرين ناقلا أرائهم ومناقشا ببعضها ويناقش غيرها ويضيف ما اهتدى إليه من تأويلات.

وفي معرض حديثه عن معنى قوله تعالى":الحمد"، يؤكد الشيخ المغيلي أنّه يتوجب على الناظر في كلام الله والمفسر له أنْ يفقه معاني الكلمات فيقول":وَأَوَّل ما يفَْتَقِر بِقَوْله الناظِر بعَْدِ تَصْحِيح النَظَر مَعْرِفَة مُعانِيَ الكَلِمات 19 "، وقد اشترط فقهاء اللغة كابن فارس)ت 395 :هـ (وجوب الإلمام بمدلولات الحرف العربي لأنّه السبيل لفهم مراد الله تعالي ولهذا يقول" :إنّ العِلْم بلُغَة العَرَب وَاجِب عَلَى كُل مُتَعَلّق مَن العِلْم بِالقُرْآن وَالسُنَّة والفتيا بِسَبَب، حَتَّى لا غِنَى لِأَحدّ مِنهُم عَنه ، وَذلّكِ إنَّ القُرْآن نازل بلُغَة العَرَب، وَرَسُول الله صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّمَ عَرَبِي، فَمَن أراد مَعْرِفَة ما في كتّاب الله عزّ وَجلَ وَما في سُنَّة رَسُوله صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّمَ من كُل كَلِمَّة عَرَبِيَّة أَو نَظم عَجِيب، لم يَجد من العِلْم بِاللُغَة .بَدّا.

مصادر التفسير عنده:

مصادر التفسير التي اعتمدها الشيخ المغيلي يجب التذكير بأنّه استمد معارفه من علماء تلمسان والجزائر وبجاية ..وعاش في بيئة علمية مزدهرة في تلمسان والمغرب وإفريقيا، وقد تولد لديه احساس بالمسؤولية الدعوية والتبليغية، فجلس للتدريس بالمسجد الكبير بتلمسان، والمناظرة بإقليم توات، ونشر الفتاوى ومبادئ الدين الإسلامي في عموم إفريقيا، فكان مصلحا وعالما ومرشدا بشهادة علماء عصره والمتأخرين،

كما ساعدته نزعته الصوفية متأثر بشيخه عبد الرحمان الثعالبي، حيث أمره بنشر– الطريقة القادرية –في قصور توات وبلاد السودان الغربي، كما وظف مبادئ المنطق وآليات الحجاج والبرهان التي استمدها من كتب ابن سينا وأبو حامد الغزالي وابن رشد...

تقدير الشيخ للغة العربية:

يعتبر الشيخ المغيلي اللغة العربية هي المفتاح والأساس في فهم نّصوص الشرع الإسلامي، ومن يمتلك اللغة العربية وأسرارها يستطيع أن يفهم مراد الله من الانسان، ولهذا كان مقررا على طلبة العلم قراءة أمهات الكتب اللغوية والبلاغية وحفظ المتون النحوية والصرفية والمنظومات الإعرابية.

سفره إلى "كانو":

يعد الاستقرار الذي عرفته مدينة كانو بعد وصول أميرها الجديد محمد بن يعقوب رنفا، جاء الإمام المغيلي داعيا إلى تطبيق الشريعة الإسلامية والعمل بسنة النبي عليه ، السلاة والسلام، وكان من العلماء المسلمين الأوائل الذين دخلوا هذا الإقليم .

وتوطن المغيلي بكانو وبنى بها مدرسته المعروفة باسم الشيخ المغيلي وانتشر صيته وقصده الطلبة من الجهات المختلفة من جنوب إفريقيا وتخرجت بها على يده مشايخ ، وهناك أتيح له الاتصال بأميرها محمد بن يعقوب ودارت بينهما محاورات عدة انتهت أخيربتعيين المغيلي مستشارًا للأمير ثم رئيسا للقضاء والإفتاء . ([9])

لقد شهدت تلمسان في العصر الإسلامي الوسيط حياة فكرية رائدة، وحركة تنوير واسعة للعلوم، والمعارف الإسلامية المختلفة امتد تأثيرها وإشعاعها إلى المدن والعواصم الإسلامية الكبرى في مغرب العالم الإسلامي ومشرقه، وانصب جهد شعب هذه المدينة، وأمراؤها وسلاطينها، على البناء الحضاري بمفهومه الواسع، وشهد القرن الثامن الهجري، الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي، بناء عدد من المدارس العلمية، انكب عليها جيل من العلماء والفقهاء للتدريس بها، وتثقيف الأجيال وتنويرها، والنهوض بها إلى الآفاق . ومن الأسماء اللامعة التي أسهمت في إثراء التراث الفكري بتلمسان، وحواضرها، وحتى خارج جغرافية المغرب الأوسط (الجزائر)، الشيخ العلامة محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي الذي سأحاول أن أبين من خلال هذا المقال المتواضع بعض انجازاته ومواقفه ومكانته العلمية بين طلبة العلم آنذاك وشيوخه الذين أخذ عنهم فنون العلمو المعرفة، والأثر الذي تركه في الكثير من تلامذته سواء داخل تلمسان، أو خارجها، بأسلوبه الراقي في التعامل مع الناس، خاصة مريديه.

الفكر السياسي: حيث ألَّف الشيخ المغيلي عدة رسائل في السياسة والحكم، لتبصير وترشيد الحكام المسلمين في المنطقة بأمور السياسة الشرعية، حيث كتب رسالتين لسلطان "كانو" (نيجيريا)، محمد بن يعقوب المعروف بـ"رمفا" (ت 1499هـ)، هما: الرسالة المسماة "تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين"، والرسالة المسماة "ما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام"[10]. وفي دولة سنغاي (مالي)، كتب الشيخ المغيلي للسلطان محمد بن أبي بكر توري، المعروف بالأسكيا الحاج (توفي 1493هـ)، كتابًا مهمًّا في السياسة الشرعية في شكل أجوبة على أسئلة وجهها الأخير للشيخ المغيلي، وقد عرفت هذه الرسالة بـ"أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي".

موقفه من السلاطين:

فقد شد الرحال إليها صحبة بعض تلامذته، ليشرح القضية لعلمائها ويوضح أسبابها وأهدافها وعندما وصل إليها خُص باستقبال حافل في البداية من طرف السلطان والعلماء حتى المعارضين له، ثم لما جمع السلطان العلماء والفقهاء وتم نقاش القضية في جلسة طويلة وحادة وساخنة على ما يبدو وتمكن الحاقدون على المغيلي من تغيير مجرى القضية وتغلبوا على عقلية السلطان وأخرجوا القضية من إطارها الديني

والاجتماعي إلى إطار سياسي، وصوروا له المغيلي على أنه صاحب طموح أو طموح سياسية يخفي من ورائه أهدافًا سياسية ، غير أن المغيلي دافع بشدة على موقفه ورفض فكرة الطموح السياسي، الذي حاولوا أن يلصقوه به وبقضيته وأكد أنه تصرف في إطار الشريعة الإسلامية للحفاظ على الطابع الإسلامي والشخصية الإسلامية لشعب توات المسلم، وغادر فاس غاضبا وعاد إلى توات، وقلبه يطفح بالمرارة والألم من جراء المواقف السيئة والمؤلمة التي اتخذها أنصاف الفقهاء وأرباع المتفقهين بحاضرة فاس، وقيل بأنه أقسم يمينا معظمة ألا يجتمع مرة أخرى مع أي سلطان، ولكنه سيلتقي ويجتمع بالسلطان الأسقيا محمد الكبير في قاو ببلاد التكرور وبالأمير أبي عبد الله محمد بن يعقوب في كاتسنا، ويخدمهما ويقدم لهما نصائح ومواعظ وإرشادات في أسلوب الحكم وقيل بأنه أقسم يمينا معظمة ألا يجتمع مرة أخرى مع أي سلطان، ولكنه سيلتقي ويجتمع بالسلطان الأسقيا محمد الكبير في قاو ببلاد التكرور وبالأمير أبي عبد الله محمد بن يعقوب في كاتسنا، ويخدمهما ويقدم لهما نصائح ومواعظ وإرشادات في أسلوب الحكم وسياسة الشعوب ومبادئ الشريعة الإسلامي([11])

ينبغي أن يتحلى المحتسب بصفات اللين والرفق في القول والفعل، وطلاقة الوجه وحسن الخلق، فإن ذلك يعينه على أداء مهامه واستمالة القلوب ويجب أن يكون المحتسب ، مواظبا على سنن الرسول الكريم متعففًا بما في أيدي الناس، لا يقبل الهدايا والرشاوي وعلى المحتسب أن يختار من يعينه على أداء مهامه، كما طلب من السلطان مراقبة هؤلاء العمال عند أداء مهامهم والتأكد من أنهم يقومون بها على أتم وجه ([12])

الثقافة الواسعة وإدراك خصوصية المجتمعات:

على العالم الذي يحمل واسعا وممتدا أن يتمتع بالثقافة الواسعة والصبر وسعة الصدر، وهذا ما كان يميز شيخنا المغيلي فقد تمتع بثقافة راقية ومعرفة أكيدة بخصوصية المجتمعات التي يحل عليها، وهذا سهل له الاندماج والانسجام مع المجتمعات، فسهلت له هذه الثقافة وعبدت له جميع طرق النجاح في مهمته الأفريقية.

ومن الجدير بالذكر أنه قد التحق بمدينة(كاغه أو قاو) عاصمة مملكة الصنغاي، فانضم إليه عدد من العلماء ليعلموا في تلك النواحي وينشروا الإسلام، ويقاوموا العادات والتقاليد الوثنية كما انتقل إلى بلاد (الكبي) لينشر فيها الإسلام والنظام الإسلامي.

"لقد كان الشيخ المغيلي على معرفة كاملة بهذه المجتمعات لذلك نجده يتشدد في رده على كل المسائل والأسئلة التي تطرح عليه لأن اطباع في هذه الحالات غلبت التطبع بقليل من الحذر،لهذا اعتمد الإمام المغيلي على مذهبه المبني على الأسس الآتية:

-التدرج في العقاب

-دراسة الوضع عن بينة وروية للحالات التي تنتاب المجتمع.

-استعمال العقل وبيان قدرة الغنسان على الإدراك الكامل للحقيقة دون عناء، وهذا كلما أمعن الإنسان في نفسه ومحيطه تعلق بالله الواحد الأحد "([13])

نظرته للملك والخلافة:

يرى الشيخ فيالملك والخلافة رؤية صاقبة في أنها تجمع بين التقوى والانتصار على النفس والسيطرة عليها وعدم انسياقها إلى الهوىن ويظهر ذلك جليًا فيما جاء في رد المغيلي في معرض حديثه عن السؤال الأول الذي طرحه عليه الأمر محمد أسقيا الكبير حيث يقول:"اعلم أعاننا الله وإياك أن الملك كله لله وما النصر إلا من عند الله فكن لله عبدا بطاعته يكن الله لك ربا بحفظه وإعانته، ما أنت إلا عبد مملوك، لا تملك شيئا، وقد رفعك مولاك على الكثير من عباده لتصلح لهم دينهم ودنياهم لا لتكون سيدهم ومولاهم" ويقول في مناسبة أخرى" فأنت في جميع مملكتك راع، لا مالك وكل راع مسؤول عن رعيته، فانظر لنفسك قبل الفوت ، فإنه لابد من الموت".([14])

ينبه الشيخ المغيلي دائما الملك والأمير أن الملك والإمارة ليس بمغنم، وأول شيء عليه أن يحسن النية للإمارة، ويرى أن الإمارة يجب أن لا تنشغل بالجواهر والذهب، ويذكره دائما بقوله: ما أنت إلا خليفة لله على أرضه،" فإن الإمارة خلافة من الله ونيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فما أعظم فضلها وما أثقل حملها". وأن الإمارة بين الهوى والتقوى على كل ذي عقل وأمانة أن يبعد عنها إلا إذا لم يكن له يد فيها، فتوكل على الله واستعن في أمرك بالله وليكن عملك كله لوجه الله، وذكر نفسك أنك واحد من خلق الله وخوفك كله من الله وهمك لله في مصالح خلق الله ما ولاك عليهم .لتكون سيدهم وإنما ولاك عليهم لتصلح دينهم ودنياه"([15])

يجب على الأمير أن يكون عادلاً مع رعيته ويعاملهم بالتساوي لأن المملكة لا تثبت أن الأمير جاء عن طريق : « يمكنها الثبوت إلا بالعدل والإحسان كما قال المغيلي السري وظلم رعيته وخيانته للأمانة وخروجه عن تعاليم القرآن والسنة فإن الأمة قوامة عليه ولها حق عزله»5.([16])

النهج الثوري: حيث "أجاز الشيخ المغيلي في ذلك الوقت المبكر الجهاد ضد الحاكم الظالم الذي أصبح حكمه حكم الكافر والمخلِّط، ورأى المغيلي في الجهاد ضد هؤلاء أولوية على مجاهدة الكفار"، عكس أطروحات الفكر السُّنِّي المشرقي الذي كان يتحرى تجنب الفتنة على رأي جماعة "نحن مع من غلب"[17].

المشيخة الصوفية: حيث كان القطب الأعلى للقادرية في الصحراء وبلاد السودان الغربي

هذه الأبعاد الأربعة: العلم، والتربية، والوعي السياسي، والفعل الثوري، أبعاد رئيسية ورثتها حركة التصوف في الغرب الإفريقي –على اختلاف تنوعاتها المدرسية ومشاربها الطرقية– من تراث الشيخ المغيلي الذي شكَّل الإطار الناظم للحركة الفكرية في السودان الغربي. ومن هنا نفهم كيف تشكلت الأرضية الفكرية التي انطلق منها التصوف في غرب إفريقيا ليضطلع لاحقًا بأدوار سياسية وثورية إلى جانب أدواره العلمية والتزكوية التقليدية.

سيأتي تفصيلها في الصفحات القادمة

"التصوف" قضية بين يدي التاريخ:

لا يمكن أن نتجاهل ولا يغيب عنا أنا قضية التصوف تحتل مكانة كبرى في حياتنا، وينظر إليها على أنها من القضايا الفكرية المتشابكة والمعقدة لما لها من جذور موغلة في القدم؛ لأنها في بعض لأحيان انعكاس لتاريخ وثقافة ومجتمع وسياسة ودين منطقة أو مجتمع ما من المجتمعات أو أحد المكونات الثقافية لمجتمع ما.

ويكاد يجمع المفكرون على بعض الأصول التي تنادي بها الطرق الصوفية، جمعها وعرفها (سهل التستيري بقوله:" أصولنا الصوفية سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق" . ([18])

كان لهم دور كبير في ظهور الحركات الجهادية في غـ ارب أفريقيا، فهو شخصية فريدة من نوعها، كرس حياته في نشر العلم والدعوة إلى الإصلاح.

ويذكر المؤرخون أن التصوف انتقل من المشرق إلى المغرب العربي عن طريق القوافل التي كانت تذهب لأداء فريضة الحج، وكذلك الطلاب لذين يفدون من بلاد المغرب إلى مجالسة العلماء في المشرق لطلب العلم، وهاتان الوسيلتان تعتمد على اللقاء المباشر والسماع بالمشافهة، وكذلك انتقلت أفكار الصوفية عن طريق المؤلفات والكتب التي انتقلت من المشرق إلى المغرب، والتجار الذين ينقلون البضائع ويتاجرون في الكتب ونقلها، وأجمع الباحثون أنه عالم بالعديد من العلوم ورحالة نبيه، محاولا تجسيد أفكاره، ومبادئه وأعماله الإصلاحية، فحياة الرجل كانت حافلة بالعطاء والكفاح ، وتميز بالتحرر الفكري والعقلي.

تأثر المغرب العربي كاملا بحركات التصوف وكان ظهور التصوف أكثر وضوحا ونشاطا في الجزائر لانتشار الزوايا الصوفية فيها وللنزعة الدينية الهائلة في التمسك بشريعة الله وسنة الحبيب المصطفى، " فالتصوف بها – الجزائر – بسط نفسه على مدى واسع وغطى مناطق عديدة من الوطن حيث نجد في كل بقعة منه زاوية ومقاما أو وليًا صالحا، وحلقة ذكر أو شيخ طريقة يدعو إلى التمسك بالشريعة والاقتداء بسنة المصطفى". ([19])

المقاربة الصوفية في المجتمعات الصحراوية (دور المغيلي فيها)

شـــخَّص الفكر الصـــوفي الإصـــلاحي عند الإمام المغيلي أزمة المجتمعات الصـــحراوية في الفراغ الســـياســـي وغياب الدولة المركزية القوية والعادلة، فالتوصـــيف الرسمي لها في أدبيات هؤلاء الرواد هو "**البلاد الصـــحراوية التكرورية الســـائبة التي لا تبلغها أحكام الأمراء ولا تنالها أيديهم**"[20]، ولكنهم مع ذلك ظلوا يفضِّلون وجود إمارات بدوية على الفوضى والفراغ التام.

لقد تعامل الفكر الإصـــلاحي الصـــوفي بواقعية مع حالة المجتمعات الصـــحراوية، فهو إذ ينكر الممارســـات الخاطئة في تجربة وأداء الإمارات القائمة في البلاد الصـــحراوية، فإنه يقدِّر الجوانب الإيجابية لهذه الإمارات وما تسـهم به من أدوار مهمة في الاسـتقرار وحفظ الأمن، وتحقيق الحدود الدنيا من مصالح الناس.

ومن هنا، كان السعي لإضفاء شرعية نسبية على الإمارات البدوية القائمة تثبيتًا للاستقرار والسلم الأهلي، مع بذل الجهد في ترشيد زعماء هذه الإمارات وحضهم على إقامة العدل وتأمين السبل ووقف التناحر الداخلي "**فمن تغلَّب من هؤلاء وتمكَّن من الضـــرب على أيدي إخوانه وأعوانه وســـائر من تصـــل إليه يده فكفهم عن المظالم وحملهم على العدل وانتصـــف منهم للمظلومين ودفع أذاهم عن ســـبل تجار المســـلمين، فهذا وإن لم ندعُ مثله إمامًا ولا ســـلطانًا ولا ملكًا، دعوناه واليًا وسيدًا على قومه... فمثل هؤلاء تجب لهم النصيحة والحض على العدل في بلاد الله بحسـن السـياسـة وتجنب السـلاطة والتحيز في الرئاسـة، ثم أدنى مراتبهم أن يكونوا كبعض عمال الأمراء فينبغي لأحدهم بل يجب عليه أن يكون حصـيف العقدة بعيد الغرة، لا يغضـب في غير حق ولا يخاف في الله لومة لائم**"[21].

لقد فرض واقع مجتمعات الصحراء والسودان الغربي نفسه على رواد الطرق الصوفية، الذين وجدوا أنفسـهم في مواجهة كم هائل من التحديات والتناقضـات، تفرض على العلماء ورجال الإصـلاح مواجهته وبلورة مقاربات إصـلاحية تسـتثمر العلم والفكر، والتربية والسـياسـة، لوقف التأثيرات السالبة لهذه التحديات، والتأسيس لأرضية يمكن من خلالها ترميم الإجماع الأهلي تمهيدًا للإصلاح السـياسـي. وكان العنوان الأبرز لذلك التوجه ترسـيخ فكرة الاهتمام بالشـأن العام، عبر مبادرات خلاقة لحفظ الأمن والاسـتقرار وإغاثة الملهوف، وتعليم العلم، وحماية الضـعيف ونصـرة المظلوم، والأهم العمل على وصـل المجتمع رأسـيًّا وأفقيًّا وتسـليك الأتباع في شـبكة صـوفية ممتدة على طول

البلاد وعرضـها، يتربى أفرادها على تعاليم ورؤى وتصـورات مشـتركة، مما من شـأنه أن يخلق كتلة إصلاحية عابرة لحدود القبائل والإمارات.

كما أعطت الطرق الصوفية عناية خاصة لإحياء الأرض من خلال غرس واحات النخيل وحفر الآبار في الفلوات، وتأسيس المدن، على نحو ما فعل الشيخ، سيديا بن المختار بن الهيبة الانتشائي، الذي بنى مدينة "أبي تلميت" في الغرب الموريتاني، ومحمد المختار ولد بلعمش الجكني، الذي أسس مدينة "تندوف" في منطقة الحمادة في الغرب الجزائري، والشيخ ماء العينين ولد الشيخ محمد فاضل، الذي أسس مدينة السمارة في الصحراء الغربية، والشيخ سيدي المحمد الكنتي الصغير، الذي أسس مدينة "بئر أم قرين" في منطقة الزمور في الشمال الموريتاني، حيث يقول عنه صاحب جوامع المهمات: "نزل على بئر أم قرين وحفرها وحفر العيون وغرس النخل"[22].

زيارته إلى نيجيريا وأثرها في تطور فكره الصوفي:

زار نيجيريا في شمال نيجيريا وولى القضاء في إمارة كانو، عندما توجه المغيلي إلى بلاد كانو والتي دخلها سنة 1502 م، أتيح له الاتصال بأميرها محمد بن يعقوب رمقا، ودارت بينها محاورات عدة انتهت أخيرا بتعيين الإمام المغيلي مستشارا للأمير، ثم رئيسا للقضاء والإفتاء، توجه الإمام المغيلي إلى بلاد الأهير شمال نيجيريا ومنها توجه إلى بلاد الهوسا واستقر بمدينة تيقدا، حيث كانت مزدهرة بالثقافة والفنون وتعج بالتجارة فاشتغل غيها .بالتدريس والوعظ والإرشا".([23])

الاهتمام بإنشاء الزوايا:

"انتقل دور هذه الزوايا إلى الجانب الدعوي بعد أن كان دورها الأول يتركز في أداء العبادات من صلاة ودروس دينية تدعو إلى الفضافة فامتد دورها "حيث اتسعت مهامها فبالإضافة إلى العبادة والجهاد أصبحت مؤسسة تعليمية يقصدها العلماء للتأليف في مختلف العلوم والمعارف، غير أنه وبعد انقضاء زمن الجهاد ورغبة من الشيخ الصوفي المربي في الاجتماع بمريديه وتلاميذه" ([24])

لعبت الزوايا دورا كبيرا لما تتمتع به من تنظيم جيد، فهي" عبر تاريخها الطويل قواعد روحية استطاعت بما لها من قوة ونفوذ أن تلعب دورا هاما في أحرج فترات التاريخ حفاظا على أهم مقومات الشخصية الوطنية اللغة العربية والإسلام، ونجحت نجاحا باهرًا و"استعملها الصوفية كوسيلة هامة لنشر مذهبهم الصوفي كما نقل من خلالها التصوف من مرحلة إلى مرحلة أخرى منالتصوف النظري إلى التصوف العملين وجل مؤسسي الزوايا كانوا على مستوى عال من العلم والفقه في الدين".([25])

كانت الزوايا منطلقا يحمل الفكر التصوفي، وبمثابة "مالم إسلامية يلجأ إليها المتخاصمون فتحل قضاياهم على هدي الكتاب والسنة"([26])

كما كان للزوايا مؤسسوها كان لها مريدوها وتلاميذها، الذين أصبحوا في فترة وجيزة تحت الإصرار أعلامًا يشار إليهم بالبنان، في جميع ربوع المغرب العربي لاسيما الجزائر، "ففضل الزوايا في تكوين هؤلاء عظيم جداً لا يستطيع إنكاره إلا جحود أو مكابر، وقد اعترف به كل النزهاء والمخلصين باستثناء بعض الزوايا التي شذت وانحرفت عن مهمتها الأصلية التي أسست من أجلها نظرا لامتزاج الخرافات والأباطيل وكذا الشعوذة والتدجيل"([27])

كان الشيخ يلعب دورا عظيما في تسخير فكرة الزاوية للوصول إلى هدفه التصوفي الهادف إلى الجهاد واستثمر الزوايا في ذلك كثيرا هو وكل مريدوه وتلاميذه وتكون لديه صف كبير من المتصوف وبدأ نشاطهم ولكن كان التفكير في الشريحة العريضة من المتمع وهم عامة الشعب، "فكان هؤلاء المتصوفة يحفزون الشعب ويعضونه ويحضرونه للثورة ضد المستعمر، فمنهم التخطيط والتدبير بل ولسير مع الجيش في كل الثورات مواصلين إرشادهم وتذكيرهم بالله عز وجل ومبشرون المجاهدين بالفوز المؤكد: النصر أو الجنة، الفوز أو الاستشهاد في سبيل الله والوطن لأن حب الوطن من الإيمان وهم اللذين لا مكان لحب الدنيا فيقلوبهم، ولا يخشون الموت في سبيل الله بل يسعون إليه.

أسس الإمام المغيلي زاويته بقصر بوعلي على إثر الخلاف الذي وقع بينه وبين شيخ زاوية أبي يحيى النياري عبد الله العضوني وهذا سنة 885) هـ 1480 –م(، وبدأ نشاطه التعليمي بها وسرعان ما جمعته هذه الزاوية بين المهمة التعليمية والمهمة الحربية حيث كانت قاعدة لانطلاق جيش المغيلي لضرب قواعد اليهود3 ، وتتلخص أهم أدوار زاوية المغيلي في الأمور التالية:

—كانت بالدرجة الأولى مركزا للعبادة والتعليم والتربية.

—كانت مقرا لثاني أكبر دار للقضاء بتوات، بعد مركز تمنطيط وقد كانت تختص في الفصل في القضايا والخصومات والنوازل، وكان الشيخ المغيلي يشرف بنفسه على جميع هذه القضايا ملتزما بتطبيق الأحكام الشرعية التي يراعي فيها دائما خدمة المصلحة العام.

—اهتمام الزاوية بالجانب الاجتماعي على عادة جميع زوايا توات، حيث كانت مركزا لنزول المسافرين وإيواء الفقراء وابن السبيل.

—توفير الأمن والاستقرار للقوافل التجارية المارة بها، كما تعد زاوية المغيلي مركزا عسكريا تجيش الجيوش ولاستنهاض الهمم حيث كانت مركز الحرب الأولى والثانية ضد اليهود.

—بفضل هاته الزاوية أصبح في توات قاضيان شرعيان :الأول في الجهة الشرقية وهو الإمام المغيلي والثاني في الجهة الغربية وهو الشيخ العضوني، وكانا يقضيان في المسألة الواحدة وحكم كل منهما مغاير لحكم الآخر في الكثير من الأحيان.

—العمل على نشر الفكر الصوفي القادري من خلال نشر الطريقة القادرية التي أخذها على شيخه عبد الرحمان الثعالبي ووصاه بنشرها في توات والسودان الغربي، فأخذ من هاته الزاوية قاعدة لنشر هاته الطريقة وإيجاد أتباع لها ومريدين، فهو في تصوفه يركز .على تهذيب الأخلاق وإصلاحها والدعوة إلى تعاليم الدين الصحيحة ([28])

من روافد التصوف عنده:

كان الشيخ وفكره التصوفي المتميز إلي ظهر قويا له روافد فكريه استقى منها وتعلم وتشبع فكره بأقوالهم ومنومتهم الفكرية، "لقد نمت في نفسه بذور الصوفية وغذاها اتصاله بالشيخ العالم سيدي عبد الرحمن الثعالبي، الذي تتلمذ عليه وزادت المصاهرة بينهما أواصر المودة والقرابة، وكان هذا سنة875هـ"([29])

ويمكن القول بأن شيوخ كثيرين أثروا فيه وفي بروز فكره وأفكاره الصوفية من أعلامه زمانه، مثل:

السيخ عبد السلام التونسي.

الشيخ عبد الرحمن الثعالبي.

الشيخ أحمد بن عبد الله الزواوي.

الشيخ إبراهيم التازي.

الإمام السنوسي.

الشيخ أحمد زرووق.

الشيخ أحمد يوسف الملياني. ([30])

مصادر فكره التصوفي:

عندما يكون الهدف واضحا ويجد في نفس وروح المتعلم إنصاتا ونية ورغبة أكيدة تكون الثمار موازية لكل الجهود، فقد برع الشيخ عدة مجالات علمية في الفقه والتفسير وعلوم الشريعة كل هذا ليخدم الهدف " فقد أجاد عة فنون مختلفة، فتفقه في مذهب الإمام مالك بن أنس، وقد ساعده على التحصيل ذكاء مفرط ونية صالحة ومكارم أخلاق". ([31])

عالمية التصوف عند المغيلي:

من الأمور التي لابد ان نوجه إليها أنه كان يؤمن بأن ظاهرة التصوف ليست محلية بل عالمية وتبدأ بالمحيط المكاني القريب منه وخاصة البلاد المقهورة على يد الاستعمار ولابد من تخليصها من الاستعار،

والرغبة اللحة فينشر العقيدة الصحيحة تخليصها من الجهل والخرافات والشعوذة، ومن هنا جاءت انطلاقاته الفكرية التصوفية والترحال إلى بلاد خارج المغرب العربي فتجه جنوبا إلى أفريقيا وسنجد جهوه العظيمة في السودان ونيجيريا والعديدة من التجارب خارج المغرب العربي.

الرحلة إلى بلاد السودان الغربي:

نش الإسلام في بلاد مجهولة وجهورة هدف شريف يسعى إليه المخلصون، وهكذا كان جهد الشيخ مرتكزا على تحقيق هذه المكرمة والتشريف الكبيرن فاتجه إلى بلاد السودان الغربي، وكان هذا الاتجاه له أسبابه واهدافه، فيريد الشيخ أن يحصر دوافعه وهي رغته الشديدة في مواصلة جهوده نشر الإسلام والثقافة العربية والإسلامية، ثم توجيه دعوته الإصلاحية وبناء منهج محدد لهن القائم على الوعظ والتدريس والإرشاد، وتصحيح المسارات وتثبيت القواعد الفقهية وتنقيتها من الشوائب التي التصقت بها.

صدى هذه الدعوة في الصحراء

إن المتفق عليه بين جميع الدارسين الذين تناولوا شخصية المغيلي من القدامى والمحدثين ومن العرب والغربيين، هو أن الرجل كان له تأثير قوي وملموس جداً ظل صداه يتردد بعده قروناً طويلة. وهذا يلخصه الشيخ الأمين محمد عوض الله بقوله في كتابه :" العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغاي" جدة، 1970، ص: 192، ونستطيع أن نؤكد من النصوص السابقة، أن الدور الذي قام به العالم الجليل المغيلي لا يدانيه أي دور قام به عالم مغربي في السودان الغربي. فقد ترك أثراً إسلامياً كبيراً، وقام بتصحيح مفاهيم كثيرة كانت مغلوطة في أذهان العامة والسلاطين."

ويقول الدكتور شيخو أحمد سعيد غلادنثي، وهو أحد ابرز المثقفين و المهتمين بالتراث الاسلامي في نيجيريا، ومن أبناء مدينة كانو بالذات، متحدثاً عن زيارة المغيلي لمدينته في كتابه:" حركة اللغة العربية وآدابها بنيجيريا، ط, 2، الرياض، 1993 م، ص: 42 ويذكر هذا المؤلف أن أحفاد المغيلي في كانو ما يزالون إلى اليوم يحضرون مجلس أمير كانو، ويكونون في حاشيته.:" ... ولقد كان لهذه الزيارة التي قام بها المغيلي إلى كانو صدى كبير، ونتائج عظيمة تركت أثراً واضحاً لا في كانو فحسب، ولكن في ولايات الهوسا جميعاً، لأن انتشار الإسلام في كانو أدى إلى انتشاره في الولايات الأخرى (من نيجريا). ومن ذلك الوقت نستطيع أن نقول إن ولاية كانو أصبحت ولاية إسلامية حقاً، وبدأت بعدئذ تلعب دوراً هائلاً في خدمة الثقافة الإسلامية في الولايات الأخرى .ويذكر هذا المؤلف إضافة إلى ذلك بأن أحفاد المغيلي في كانو ما يزالون إلى اليوم (1993 م)

يحضـــــرون مجـــلـــس أمـــير كـــانـــو، ويـــكـــونـــون في حـــاشـــيـــتـــه. و لما أرخ المرحوم الشيخ آدم الألوري لحركة الأدب واللغة العربيين في نيجيريا في كتابه الذي سماه:("مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية" ط 2، 1992، (دون ذكر المكان)، ص: 18 . 19) أشاد بدور الإمام المغيلي الفعال في ترقية العلوم العربية والثقافية الإسلامية و اعترف بتأثيره الكبير في هذه الناحية مما جعله يسمى قسما من الخمسة ادوار التي عرفتها عصور الأدب العربي في نيجيريا منذ قيام هذا الأدب فيها إلى العصر الحاضر، قلت يسميه بعصر المغيلي و هذه الأدوار رتبها كالتالي:

- العصر البرناوي (عصر ظهور الإسلام في نيجيريا، من القرن الخامس إلى السابع الهجري.
- العصر الونغري (من القرن السابع إلى القرن التاسع).
- عصر المغيلي (من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر الهجري).
- العصر الفلاني (يبدأ بظهور ابن فودي وقيام دولته إلى سقوطها في بداية القرن الحالي).
- العصر الأنجليزي في القرن العشرين.

ثم يجعل من نص بعض فتاوى المغيلي الواردة في أجوبته لأسئلة أسكيا، نموذجاً لأسلوب الكتابة العربية في هذا العصر الأدبي الذي سماه بالعصر المغيلي.

وأخيراً يختم المرحوم الألوري في كتابه المشـــار إليه شـــهادته في حق المغيلي بالقول: " ... فقد استفادت البلاد منه كثيراً، وآثاره كثيرة في ميادين عديدة واضحة ملموسة لكل صغير وكبير، في الحكم والســـياســـة والعلم والأدب... ولقد تعلم منه الكثيرون، والكثيرون من علماء هذه البلاد؛ واتصل بسلاطين كانو وكَشِنَة وأكذر وتَكَدَّ؛ ووضع لهم وصايا سياسية على القواعد الشرعية، وهي محفوظة في الدوائر الحكومية ومعمول بها في الأوساط الرسمية[32]."

تأثيره في الحركات الاصلاحية و الدعوية

لقد أنجزت أبحاث تاريخية عن تأثير هذا الإمام في الحركات الإصلاحية و الدعوية في الصحراء خاصة بعد إنشاء مركز أحمد بابا سنة 1973 م و هو يحتوى على الكثير من آثاره و مخطوطاته، و كانت هذه المخطوطات و الرسائل موضوع رسالة دكتوراه قدمها في جامعة لندن النيجيري حسن إبراهيم كوارزو سنة 1972 م بلندن – دكتور حاليا و أستاذ كرسي بغانا – تحت

إشراف البروفيسور الانجليزي جوهن هوناك الذي اصبح رئيسا لمركز الدراسات الإفريقية في مدينة وسترن الجديدة بالولايات المتحدة الامريكية.تحت عنوان:

" The Life and Teaching of Al-Maghali "

لقد ظل تأثير المغيلي هذا الذي تحدثنا عنه محفوظاً في ذاكرة الأجيال من أبناء السودان الغربيّ عموماً ونيجيريا على الخصوص، وظلت أعماله وآثاره المكتوبة والروايات الشفوية المنقولة عنه يحفظها العلماء ويتداولها أهل الإصلاح والسياسة ورجال الدعوة جيلاً بعد آخر .... حتى إننا لا نكاد نجد مؤلفاً من مؤلفات علماء السودان و النيجر و نيجيريا والقائمين بالدعوة و الإرشاد في هذه البلدان، والمؤرخين للحركات الإسلامية فيها، يخلو من الإشارة للإمام المغيلي والنقل عنه والرجوع إلى وصاياه وفتاواه ورسائله، والاحتجاج بأقواله وآرائه في تدعيم دعوتهم وإسناد الأفكار التي تضمنتها حركتهم الجهادية والإصلاحية والدعوية حيث كانوا يواجهون خصومهم و ما يقيمونه في وجههم من حملات التشكيك والتشويش في العديد من القضايا الدينية والدنيوية بفتاوى الإمام المغيلي وكتاباته بما لها في نفوس الجميع من الإجلال والإكبار هي الحجة الدامغة من بين الحجج التي يتْأكون عليها و يسوقونها للاحتجاج عليهم ومجادلتهم في مجالس المناظرات والمناقشات والمطارحات السياسية والدينية.

الدعوة إلى الزهد:

تشبع فكر الشيخ المغيلي بفكرة ومنهج الزهد والبعد عن لذيذ العيش، فكانت تعاليمه وإرشادات يبثها إلى كل من دخل في مريديه سواء ملك أو سوقة فيقول:" ... فلا تتزين بفضة ولا ذهب ولا حرير بحال فإن ذلك كله قبح ودناءة وضلال وتربع إن جلست وأسكن ما استطعت فلا تعبث ولو بيدك واغضض من بصرك، وليكن نظرك تفرسا وإطراقك تفكرا".

فيتقدم الشيخ دائما بالنصيحة للملك ويقول له" الإمارة غرر جنتها الحذر، فاظهر القوة والجلد والزهد في الصاحبة والولد والرغبة في الأبطال والعدد وانهض عن مجاورة الهر والفار لمساورة ليوث القفار:

ألا قبح الله الجبان من الورى وأكساه ثوب الخزي في طبق الثرى

أبالجبن كان الملك يملك قلبنا وما الملك إلا بالشجاعة يشترى([33])

الدعوة إلى الكرم:

من شيم العلماء الكرم رغم ضيق العيش الذي يميلون إليه عمدا رغبة عن الدنيا وزخرفها، ورغم ذلك نجد الشيخ المغيلي الكرم صفة ملازمة له، ولا يمكن أن يخلو له مجلس دون أن ينبه دوما الأخوة

التابعين له بالدعوة المستمر إلى محبة الأصدقاء والاحترام بين بعضهم البعض، وتقديرهم لبعض، بل وإكرامهم بكل صورة ممكنة ومتاحة، مما يزيد الود والوئام بين تابعيه، فيقول" ولا يقرب من طعامك وشرابك وفراشك وثيابك إلا أقرب أحبابك، ولا تفارق الدرع والسلاح، ولا يقرب منك إلا أهل الأمانة والصلاح، ولا تقم بغير مكان أمين، وغير مرقدك".([34])

من الذين تأثروا بالشيخ:

الشيخ سيد المختار الكنتي

خلال رحلته الدعوية التأسيسية في السودان الغربي كان الشيخ المغيلي مرافَقًا بتلميذه، سيدي اعمر الشيخ الكنتي (توفي 959هـ/1552م)، والذي كان له دور بارز في إكمال رسالة محمد بن عبد الكريم المغيلي في نشر القادرية ببلاد التكرور، "والتي كانت ترمي إلى الإصلاح وتصحيح العقيدة وتثبيت الدين الإسلامي"[35].

يصف الأستاذ الباحث الدكتور، عبد الودود ولد عبد الله (ددود)، الدور الرسالي الذي قام به سيدي اعمر الشيخ بعد وفاة شيخه بـــ"امتصاص ثمرة المغيلي"؛ وذلك تعليقًا على رواية تاريخية تقول إنه "لما أدرك المغيلي الموتُ قال لبنيه ومريديه قولته المشهورة، وهي إحدى علامات الاستخلاف عند المتصوفة: "من كان منكم ملتمسًا منِّي نفعًا، فليلتمسه من هذا، فإنه احتوى على جميع ما عندي، وامتصني كما يمتص الآكلُ التمرة ويلقي بالنواة"[36]، استمرت القادرية في صعود متواصل مع الرقاديين الكنتيين، لكن المرحلة الحاسمة في تاريخ القادرية بل وفي تاريخ التصوف في غرب إفريقيا كانت مع بروز الشيخ سيدي المختار الكنتي، الذي "يمكن رد تيار التصوف المؤسس في السودان الغربي إليه وهو المسؤول عن بذر بذور الطريقة القادرية التي سجلت نجاحًا في كسب قلوب الناس على يديه"[37]، لقد تمت مأسسة التصوف الطرقي وتأهليه للعب أدوار إصلاحية بالغة الأهمية على يد الشيخ، سيدي المختار الكنتي، وهو التطور الذي تجاوز القدرية إلى بقية الطرق الصوفية؛ **"فالمعتقد أن تأثير النموذج الطرقي الذي استقرت معالمه في عهد الشيخ، سيدي المختار الكنتي، قد تجاوز مريدي هذه الطريقة ليشمل أغلب التنظيمات الطرقية التي انتشرت في الصحراء والسودان الغربي في أواخر القرن الثاني عشر للهجرة (القرن 18م)"**[38].

لقد قام الفكر الإصلاحي للشيخ سيدي المختار الكنتي في القرن 18م على المزاوجة بين مجموعة من المؤثرات والفواعل، منها: التميز العلمي والثقافي، والخبرة التاريخية، والإمامة الصوفية، حيث

كان الشيخ سيدي المختار الكنتي زعيمًا ومجددًا للطريقة القادرية في الصحراء والسودان الغربي، جاعلًا من الطريقة القادرية الحاضنة الفكرية والتربوية للإصلاح السياسي والاجتماعي في المنطقة إلى جانب أدوارها الدعوية المشهودة.

لقد دعا الشيخ، سيدي المختار الكنتي، بقوة إلى الاجتهاد والتجديد، وانتقد بشدة الجمود والتقليد اللذين كانا سائدين في عصره؛ "فقد شنَّ المختار الكنتي حملة على فقهاء عصره، الذين اقتصروا على المختصرات الفقهية، واكتفوا بها عن الأصول والأمهات، فهو لا يعتد بهم إذ حبسوا أنفسهم في دائرة المختصرات والتعليقات، ولا يطمئن إلى ما يجترُّونه من سفاسف وترهات، ويعتبرهم آفة على العلم وخطرًا عليه"[39].

محمد بن عبد الجبار الفجيجي:

عالم متصوف له إلمام كبير بعلوم الحديث ورواياته، كانت دراسته الأولى بفجيج على يد والده عبد الجبار وغيره من علماء المنطقة، أسس زاوية في بلاده فجيج، كما بنى بيتًا للفقراء ومريدي التصوف ينفق عليهم، اشتهر بالشعر وممر فيه وألف العديد من القصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، التقى مع المغيلي في فاس حيث لازمه طوال وجوده بها، وأخذ عنه التصوف وعلوم الحديث والفقه والعقيدة والمنطق، ثم رجع إلى بلاده ليستقر فيها، ويدرس مختلف العلوم الشرعية خاصة الحديث الذي كان له فيه ."([40])

والتجديد في نظر هؤلاء الرواد هو تجديد ما اندرس من معالم الدين، والعودة بالناس إلى الفهم والممارسة الإسلامية الصحيحة كما تجسدت في العهد النبوي والراشدي "فلما ضعفت الأمة عن القيام بما ذُكر على الرسم المذكور انتدب للقيام بكل خطة من تلك الخطط من يقوم بأعبائها من أعيان الأمة: يجدد ما قد اندرس من آثارها، ويهلّل ما انكسف من أنوارها، فقام القضاة بتجديد خطة القضاء، والأمراء بتجديد الإمارة، والمفسرون بالقيام بأحكام القرآن وآدابه، والمحدثون بحفظ الحديث وضبطه، والفقهاء بتقرير علم الحلال والحرام وحفظه، والصوفية بعلم جهاد النفوس ورياضتها، وعلاجها من عللها وتهذيبها... وقام النحاة بعلوم اللسان وبيان وجوه إعجاز القرآن"[41].

والتجديد في رؤية الشيخ المختار الكبير –كما يؤكد عزيز بطران– هو مهمة صعبة لا تحدث إلا مرة على رأس كل قرن... المجدد يجب ألا يدعي القيام بهذا الدور أو يصف نفسه بالمجدد، فعلماء

عصره هم من سيطلقون عليه هذا اللقب تلقائيًّا، إذا كانت تتوافر فيه شروطه، فاختيار المجدد إذن يكون بإجماع من أئمة وعلماء عصره[42].

لقد شخَّص الشيخ، سيدي المختار الكنتي، علة الانحطاط في مجتمع السودان الغربي في إسقاط المغاربة لدولة سنغاي دون تقديم بديل؛ حيث أدى تدمير السلطنة الإسلامية إلى حدوث فراغ وفوضى، وسلب ونهب وازدهار ثقافة التخليط والوثنية، مما دفع الكنتي إلى تفضيل وجود دولة – حتى لو كانت ظالمة– على غرار الدولة المغاربية على الفوضى، لأنه –على الأقل– يوجد عند المغاربة فكر المَلَكية وحفظ الأمن وإقامة المؤسسات على الشريعة الإسلامية[43].

وركز الكنتي على أهمية إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الجهاد لاجتثاث الشر بشكل نهائي، وشخَّص الكنتي الشر في انتشار الفتن والبدع والفساد والغفلة... كما دعا لفتح باب الاجتهاد وسعى كذلك إلى ملء فراغ الدولة بإقامة شبكة تواصل منظمة وبتراتيب إدارية صوفية لوصل المجتمع رأسيًّا وأفقيًّا[44].

لقد حظيت قضية الفراغ السياسي بنصيب وافر من البحث والاهتمام في فكر وخطاب شيوخ التصوف الإصلاحي في السودان الغربي (إفريقيا الغربية)، يستعير الشيخ، سيدي محمد الخليفة الكنتي (ت 1826م) من الشيخ المغيلي مصطلح "البلاد السائبة" كتوصيف –بالغ الدلالة– لحالة الصحراء والسودان الغربي بعد (انهيار دولة السنغاي 1591م) داعيًا في كتابه "أوثق عرى الاعتصام للوزراء والأمراء والحكام" إلى إنهاء الفوضى وإقامة الدولة "فصل في وجوب نصب الإمام لما يترتب عليه من أمور المسلمين"[45].

لقد كان إنهاء الفراغ السياسي وإقامة الدولة هدفًا استراتيجيًّا للحركة الإصلاحية الصوفية في غرب إفريقيا خلال القرنين 18 و19، ولكن ستتباين الرؤى والاستراتيجيات تجاه الأوضاع السياسية في المجتمعات الصحراوية البدوية بخلاف المجتمعات السودانية ذات الطابع المديني والاقتصاد الزراعي، ففي الأولى تم التركيز على مقاربة إصلاحية شاملة بعيدة المدى، وفي الثانية تم اللجوء إلى المقاربة الثورية–الجهادية كخيار وحيد حاسم.

النتائج والتوصيات:

مما تم عرضه في هذه المشاركة يمكن أن نبين أهم النقاط التي استنتجها الباحث، والتوصيت الممكنة، وهي:

* التصوف قضية لها جذورها الموغلة في القدم، ورغم أنها قضية قديمة إلا وإن لها منظور حديث، وفهمها على وجهها الصحيح تسهم بدور كبير في توجيه المسلم وتوضيح المفاهيم الصحيحة في الدين.

اعتمد الفكر التصوفي للشيخ المغيلي على عدة مرتكزات، منها:

- أثر البيئة الاجتماعية التي تربى فيها.
- أثر الحياة السياسية والدينية في عصره.
- نظرته إلى الدنيا وملهياتها بعين الزاهد العابد المجاهد.
- نظرته إلى الإمارة والملك، ونظرته الفكرية حول المناصب وزوالها.
- الانتقال والترحال من بلاد المغرب العربي إلى بلاد جديدة ونشر الإسلام والدعوة الحكيمة للدخول فيه.

* يمثل الشيخ المغيلي مرحلة هامة في الفكر الغنساني والفكر العربي والإسلامي، فهو شخصية إنسانية لها اعتبارها فكريا وعلى أرض الواقع، فلابد من تلمس حياته ويكون الضوء الذي يحمل شعلة الاعتدال والزهد في الدنيا وصورة مشرفة للرجل النقي التقي الذي نحن في حاة ملحة لحياتنا.

* وتوصي الدراسة بالاهتمام بتاريخ الشيخ وتحقيقه ودراسته ووضعه في مكانته التي يستحقها كصورة مشرفة للصوتي المتوازن المتزن.

الهوامش

([1])نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي، تق :عبد الحميد عبد الله ، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ج2 ، طرابلس، ص257 .

([2]). وصف افريقيا، حسن الوازن، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر دار المغرب الإسلامي، صـ 292 ،1983، ط2،لبنان ،ج1.

([3])أعلام التصوف في الجزائر، عبد المنعم القاسمي الحسني، دار الخليل القاسمي 2006م، ص25..

([4])محاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تح :محمد حجي، دار الغرب .الإسلامي ص 123، بيروت، د.ت..

([5])الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بإفريقيا الغربية، مبروك مقدم، دار الغرب وهران ،2003م، ص27

([6])السابق.

([7])ياسين شبايبي، المرجع السابق، ص22-23.

([8])مجلة إشكالات في اللغة والأدب ، مجلد 08 :عدد 3 :السنة 2019م. ص133.

([9])انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، عبد الله سالم بازينة، المرجع السابق، ص189 .

[10] د. شيخو أحمد سعيد غلادنتي، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، (الرياض، الطبعة الثانية 1993)، ص 42.

([11])أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، يحي بوعزيز، ص151جسور المعرفة، المجلد5 ، العدد:1،ص23.

م([12])تاريخ مملكة السانغاي، مبيضين مهند أحمد، فتاوي المغيلي، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مج 10 ، 1435 ، ع 3 هـ2014م.، ص450 .

([13])المصدر نفسه ص440 .

([14])المصدر نفسه ، ص 84

([15])النثر الفني في مجموعة المغيلي وأثرها في الأدب العرب النيجيري، قذافي بشير، ص55 .

([16])النظرية الإسلامية في الدولة، الصعيدي حارم المتعالي، دار النهضة، القاهرة، ص132 .

[17] د. حسن مكي، رواد الفكر والتجديد في السودان وإفريقيا جنوب الصحراء في المائتي سنة الأخيرة، (مجلة دراسات إفريقية، الخرطوم، العدد 41، يونيو/حزيران 2005)، ص 12.

([18]) رسالة الشرك ومظاهره، مبارك بن محمد الميلي، مكتبة النهضة، الطبعة الثالثة، 1966، ص:269.

([19])أعلام التصوف في الجزائر، عبد المنعم القاسمي الحسني، دار الخليل القاسمي 2006م، ص25.

[20] الشيخ سيدي محمد الخليفة، رسالة إلى الأمير آماش ولد اعمر ولد اعلي، (مجموعة رسائل الشيخ سيدي محمد الخليفة إلى أمراء وزعماء الحوض، مركز الشيخ سيدي المختار الكنتي للوثائق، غاوة، أزواد، مالي)، من دون تصنيف أو ترقيم.

[21] المصدر نفسه

[22] محمد سالم بن الحبيب بن الحسن بن عبد الحي، جوامع المهمات في أمور الرقيبات، تحقيق وتقديم مصطفى الناعمي، (الرباط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1992)، ص 87.

([23])مبروك مقدم، المرجع السابق، ص30

([24])الطرق الصوفية والزوايا لصلاح مؤيد العقبي، دار البرق، لبنن، لبنان، ص132.

([25])أعلام التصوف في الجزائر، عبد المنعم القاسمي الحسني، دار الخليل القاسمي 2006م، ص25..

([26])المصدر نفسه

([27])الطرق الصوفية والزوايا لصلاح مؤيد العقبي، دار البرق، لبنن، لبنان، ص132..

([28]) المرجع السابق، ص48

([29])الإمام محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بافريقيا الغربية خلال القرن 9هـ / 15م، مبروك مقدم، دار الغرب وهران ،2003م،ص27.

([30])الإمام محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بافريقيا الغربية خلال القرن 9هـ / 15م، مبروك مقدم، دار الغرب وهران ،2003م، ص269.

([31])الإمام محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بافريقيا الغربية خلال القرن 9هـ / 15م، مبروك مقدم، دار الغرب وهران ،2003م،ص27.

[32] محمد سالم بن الحبيب بن الحسن بن عبد الحي، جوامع المهمات في أمور الرقيبات، تحقيق وتقديم مصطفى الناعمي، (الرباط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1992)، ص 87.

([33])تاريخ مملكة السانغاي، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مبيضين، مهند أحمد فتاوي المغيلي ،مج 10 .، 1435 هـ، ع 3 ، 2014 م، ص440

([34])المصدر نفسه ص102

[35] د. بوداوية ميخوت، العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، (رسالة لنيل دكتوراه دولة في التاريخ، 2005-2006، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة أبوبكر بلقايد، تلمسان الجزائر)، ص 264.

[36] عبد الودود ولد عبد الله، تحولات التصوف عبر الصحراء من الزاوية الرقادية إلى المدرسة المختارية، الأدب المقاوم في القارة الإفريقية، أعمال ملتقى عيون الأدب العربي، النسخة التاسعة، دورة الشيخ سيدي المختار الكنتي، منشورات جمعية النجاح للتنمية الاجتماعية، المغرب، ط1، أبريل/نيسان 2018، ص 326.

[37] د. حسن مكي، رواد الفكر والتجديد في السودان وإفريقيا جنوب الصحراء في المائتي سنة الأخيرة، مصدر سابق، ص 13.

[38] عبد الودود ولد عبد الله، تحولات التصوف عبر الصحراء من الزاوية الرقادية إلى المدرسة المختارية، مصدر سابق، ص 325.

[39] أحمد الأحمدي، المختار الكبير الكنتي، التصوف والعلم بأزواد وإفريقيا، (الجزائر، جمعية البيت للثقافة والفنون، ط1 سنة 2009)، ص 175.

([40])العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، 2006 م، بودواية مبخوت، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان،2005 ص 246 .

[41] الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، الطرائف والتلائد، الجزء الثاني، ص 139.

[42] عزيز بطران، الطريقة القادرية في غرب إفريقيا، حياة الشيخ سيدي المختار الكنتي، (جامعة هوارد في واشنطن، المعهد الإفريقي للدراسات، الرباط ـ المغرب ـ الطبعة الأولى، سنة 2001)، ص 87.

[43] حسن مكي، رواد الفكر والتجديد في السودان وإفريقيا جنوب الصحراء في المائتي سنة الأخيرة، مصدر سابق، ص 12-13-14.

[44] المصدر السابق، ص 12-13-14.

[45] الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، أوثق عرى الاعتصام للأمراء والوزراء والحكام، مصدر سابق، ص 72.